

تفسير ابن كثير

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ

ثم قال الله منجبرا عن عدله ، وأنه لا يهلك أحدا ظالما له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها) وهي مكة (رسولا يتلو عليهم آياتنا) . فيه دلالة على أن النبي الأمي ، وهو محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، المبعوث من أم القرى ، رسول إلى جميع القرى ، من عرب وأعجم ، كما قال تعالى : (لتندر أم القرى ومن حولها) [الشورى : 7] ، وقال تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) [الأعراف : 158] ، وقال : (لأنذركم به ومن بلغ) [الأنعام : 19] ، وقال : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) [هود : 17] . وتمام الدليل [قوله] (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا) [الإسراء : 58] . فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة ، وقد قال : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) [

الإسراء : 15] . فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى ; لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها . وثبت في الصحيحين عنه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنه قال : " بعثت إلى الأحمر والأسود " . ولهذا ختم به الرسالة والنبوة ، فلا نبي بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة . وقيل : المراد بقوله : (حتى يبعث في أمها) أي : أصلها وعظيمنتها ، كأمهات الرساتيق والأقاليم . حكاة الزمخشري وابن الجوزي ، وغيرهما ، وليس ببعيد .